297228 ـ توجيه قوله تعالى: (ربنا إني أسكنت من ذريتي).

السؤال

ورد عند ابن كثير رحمه الله أن إسماعيل يكبر إسحاق ب ١٣ سنة ، وفي حديث ابن عباس أن إبراهيم وضع إسماعيل وهو رضيع مع أمنا هاجر عند الكعبة المشرفة ، ثم دعا قائلا (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي) إبراهيم /37. سؤالي : هو ما توجيه كلمة "من" في الآية السابقة ؟ فأغلب من قرأت له من المفسرين قال : إنها تبعيضية ، أي بعض ذريتي ، فتساءلت كيف قال إبراهيم عليه السلام بعض ذريته على الرغم أن إسماعيل هو وحيد أبيه حين وضعه عند البيت الحرام ولم يقل ذريتي؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أولا:

في كلمة (من) في الآية المذكورة، قولان للعلماء:

الأولى: أنها تبعيضية:

وعلى ذلك: يكون مقصود إبراهيم عليه السلام: أنه أسكن بعض ذريته، وهم: إسماعيل، ومن ولد منه عند بيته المحرم .

فإن قال قائل : كيف يذكر إبراهيم أنه أسكن بعض ولده، ولم يكن له غير إسماعيل ؟

قيل: على هذا أجوبة:

الأول: أن إبراهيم عليه السلام دعا بهذا الدعاء، بعد زمان من بناء الكعبة، كما دل عليه قوله في دعائه هذا الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق [سورة إبراهيم: 39]، فذكر إسحاق ـ عليه السلام ـ ، انظر: "التحرير والتنوير" (13/ 241).

لكن الظاهر خلاف ذلك، ففي الحديث: فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية، حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم إبراهيم/37- حتى بلغ ـ يشكرون إبراهيم/37 ، رواه البخاري: (4/ 142).

الثاني: أنه لم يهاجر بهم إلا بعد ميلاد إسحاق .

ويرد عليه ما رواه الطبري عن ابن عباس: " قال: وكان بين قوله: ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك

المحرم [إبراهيم: 37] وبين قوله: الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق : كذا وكذا عاما " انتهى من "التفسير" (13/ 629).

الثالث: أن المفعول محذوف، تقديره: ناسًا، أو: ولدًا، والمراد بهم إسماعيل، فالمعنى: إني أسكنت إسماعيل، فهو بعض ذريته، ولم يذكر بعد قوله (مِن ذريتي) ، أيَّ هذه الذرية هو الذي سيكنه، لأن (من) تؤدي عن هذا البعض المبهم، كما سيأتي نقله.

ويمكن أن يكون المراد: إسماعيل، ومن سيولد لإسماعيل بعد ذلك؛ فإن إسكانه متضمن إسكانهم.

انظر: "تفسير الثعلبي"(5/ 322).

وعلى القول الأخير، فإن التبعيض لا يتنافى مع عدم وجود ذرية أخرى لإبراهيم عليه السلام .

والقول الثاني: أن (من) في الآية : زائدة للتوكيد؛ وأن المعنى: أسكنت ذريتي .

قال الإمام الواحدي رحمه الله:

" قوله تعالى: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي قال الفراء: ولم يأت منهم بشيء يقع عليه الفعل، وهو جائز أن يقول: قد أصبنا من بنى فلان، وقتلنا من بني فلان، وإن لم يقل رجالاً؛ لأن (من) تؤدّي عن بعض القوم؛ كقولك: قد أصبنا من الطعام وشربنا من الماء، ومثله: أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ [الأعراف: 50] .

قال أبو بكر: ويجوز أن يقال: إن (من) دخلت لتوكيد الكلام، والتقدير: ربنا إني أسكنت ذريتي، كما قال ذو الرُّمّة:

تَبَسَّمْن عن نَوْرِ الأقَاحيّ في الضُّحَى ... وفَتَّرْنَ من أبْصَارِ مضْرُوجةٍ نُجْلِ

وعلى ما ذكر الفراء (من) دخلت للتبعيض، والتأويل: إني أسكنت بعض ذريتي، وذلك أنه أنزل إسماعيلَ، بعض ذرية إبراهيم، يدل على هذا قول ابن عباس في هذه الآية إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي يريد: إسماعيل" انتهى من "البسيط" (12/487-488). وانظر: "زاد المسير" (2/ 515).

وقال الزمخشري، رحمه الله: "(مِنْ ذُرِّيَّتِي) بعض أولادي، وهم إسماعيل ومن ولد منه". انتهى، من "الكشاف" (2/558).

وقال الشيخ عبد الخالق عضيمة، رحمه الله: "(من) للتبعيض، لأنه أُعلم أن من ذريته من يكون كافرًا، أو من يُهمل إقامتها، وهو مؤمن. البحر 5: 434، الجمل 2: 523." انتهى من "دراسات لأسلوب القرآن الكريم" عضيمة (3/335).

والحاصل:

أن (من) في قوله تعالى : (من ذريتي) إما أن تكون للتوكيد ، فلا إشكال على ما ذكر في التاريخ.

أو تكون (من) للتبعيض، والمراد: بعض ذريتي، ثم لا يلزم أن تكون ذريته جميعها حاضرة، عند ذلك القول، بل يكفي أن يكون قد علم ، أو رجا أن يكون له ذرية أخرى سوى إسماعيل ، وأن يكون الذي أسكنه (إسماعيل) حاضرا ، ثم أولاده بعد ذلك تبع له.

مع مراعاة أن هذه الأخبار المذكورة عن عمر إسماعيل، أو إسحاق ، أو غير ذلك : ليست في شيء من صحيح الحديث والخبر الذي تقوم به الحجة القاطعة للنزاع ، فليس من البين الاستشكال بها ، أو الوقوف عند حرفيتها كثيرا، مع أن توجيه الآيات مع هذه الأخبار، لو صحت: بين ظاهر في العربية، كما نقلناه عن أهل العلم ، والله أعلم